صور من الحياة :

كبريـــــاء . . . !

للأستاذ كامل محمود حبيب

وقف الفتى أمام أبيه المسجى في كفن ينظر وإن نفسه لتضطرم بعوامل الأسى على أن فقد أباه أحوج ما يكون إليه ، فهو ما يزال طالباً في المدرسة الثانوية لم ينهل من العلم إلا صبابة لا تغني من جهل ولا تعصم من طيش . وإن قلبه ليضطرب بخلجات الفرح ، فهو أصبح — في رأي نفسه — ثرياً يملك آلاف الجنيهات وعشرات الأفدنة وقصراً مشيداً وسط حديقة وارفة الظلال دانية القطوف ، فغداً ينعم بالمال ويسعد بالراحة ويلذ بالحرية . وثارت فيه نوازع الأسى والراحة في وقت معاً ، فانهمرت عبرات عينيه على حين كان ينضم قلبه على نشوة جارفة من الفرح ، فلطالما عاني الضيق والحاجة ولطالما أمسك أبوه عنه المال شحاً منه وكزازة . ثم سكتت خواطره حين يهزه بريق الذهب وهو يتألق بين يديه فيجتذب روحه ويصرفه عن أن يلقي بالاً إلى من ناح أو ندب .

وخلص الفتى من عسر الدرس إلى يسر الحقل ، ومن ضيق المدرسة إلى سعة الحياة ، ومن ذل الاستذكار إلى خفض العيش . وأحس — على حين فجأة — بأنه انفلت من قيود أبيه الثقال فأصبح رب نفسه يطير ويقع فلا يقع إلا على لذة أو متعة ، وأخوه الأكبر يرى بعين الرجل دفعات العبث توشك أن تعصف بأخيه فتستلبه من صحته وماله في وقت معاً . وآذاه أن يقع الفتى بين مخالب رفاق السوء يبعثرون ماله وشبابه ، فأراده على أن يتزوج من ابنة خاله عسى أن ينزع عنه طيش نفسه أو أن ينزعه عن صحاب السوء . ومضت السنون فإذا الفتى زوج وأب ، غير أنه لم يرتدع عن غي ولا أقلع عن سفاهة . وأنى له أن يقلع وإن الحنين إلى اللهو الوضيع ليراوده — بين الفينة والفينة — فيطلق لنفسه العنان فيندفع — في غير وعي — إلى الخمر والقمار والنساء جميعاً ، ومن حواليه شرذمة من السفلة يزينون له حياة الفسق والفجور ، فيساق إليهم السلم في غير عقل ولا تفكير .

وطمت لذاذات الطيش على عقل الفتى فما أفاق من نشوته إلا ليرى يده صفراً من الذهب والفضة معاً . لقد ابتلعت أسباب العبث والطيش كل ما ورثه من مال إلا الأفدنة وقد أهملها الفلاح فأصابها التلف والبوار ، وإلا القصر وقد ضاقت جنباته بالفحش والمجون ... القصر الذي يمرح فيه صغاره وهم ملائكة الأرض ينثرون عليها روح الجنة وطهارة السماء . ووقف الأب — ذات مرة — ينظر إلى بنيه وهم يتدافعون تحت ظلال شجرة في مرح لم ترهقه نوازع العيش ولا دنسته شواغل الحياة ، فأصابه الضيق والأسى لأنه يوشك أن يلقي بهم — بحماقته وجهله — إلى هوة من الشقاء والذل .

ووجد الفتى مس الحاجة فانطلق إلى أخيه الأكبر يستعينه على أمره ريثما يجمع غلات أرضه . وضحك الأخ الأكبر في شماتة حين وجد الفرصة سانحة فانحط على أخيه يقذع له في القول ويقسو عليه في اللوم ويعنف في الحديث ، ثم قال « ورفاقك ... رفاق السوء ؟ ألا تظن أنهم يستطيعون أن يسدوا الثغرة في الشدة ، أو يرأبوا الصدع عند اليأس ، بعد إذ استنزفوا كل وفرك في التافه الوضيع ؟ أما أنا فلا أستطيع لأن لي أولاداً هم أحق منك بمالي وجهدي » فانفلت الفتى من لدن أخيه وهو يتعثر في الضيق ويجرر أذيال الخيبة . وغاظه أن يلقى من أخيه الأكبر الاحتقار والمهانة ، وأن يحس فيه القسوة والعنف ، وأن يخرج من داره تعصفه لفحات الإخفاق والحرمان ، فانطوى على أشجانه يعيد الرأي ويقلب الفكرة : لقد أفاق من سكرات اللذة فما وجد صحابه ، وصحا من غفوة النشوة فما وجد ماله . ونازعته نفسه إلى أن يستعين بعض أهله ليصلح من شأنه أو يقيم من عوجه ، ولكن كانت أنفة كانت ما تبرح ترن في مسمعيه فتدفعه عن أن ينشر ضعفه على عيني واحد من الناس خشية أن يناله الأذى أو أن تصيبه المهانة فأمسك على مضض وهم . وغبر ساعات يضطرب في لجة من الهواجس لا يهدأ ولا يستقر ولا يهتدي إلى حيلة ثم انفرجت ظلمات الحيرة عن قبس من هدى فعقد العزم على رأي ،

إلى حين ، فينشط مأذونو القرى ومعلموها في الدعوة إلى فلان أو فلان ، ثم تقوم المآدب والخطب هنا ، وتنشب المعارك والشتائم هناك ؛ ثم لا يكون الانتخاب آخر الأمر إلا بإرشاد المأمور ، أو إكراه المالك ، أو إيحاء العمدة ، أو إغراء الجنيه !

فقلت في نفسي : ذلك هو الواقع . ومتى عرفت الأمة أن لها السلطان ، وأن سلطانها معناه البرلمان ، علمت الناخب كيف ينتخب ، وأرشدت النائب كيف ينوب !

ابن عبد الملك

وعلى حين غفلة من أهله انطلق إلى الإسكندرية .

وألقى الفتى بنفسه وأفئدته في خضم المضاربات المالية وهو يرى الهاوية أمامه تكاد تبتلعه فيقبل عليها في غير فزع ولا تردد . لقد سلبه اليأس الأناة والصبر يوم أن تراءت له فرجات الحياة تنسد أمام ناظريه ، يوم أن لمس الجفوة والغلظة في حديث أخيه الأكبر وقد كان يطمع أن يجد فيه العون والساعد ، فعزم على أن يختار لنفسه ، وما في المضاربات المالية إلا الثراء المريض أو الترِبة القاسية .

وهناك في الاسكندرية ، ابتسمت الحياة للفتى وتألق نجمه وسما حظه ، فأصاب من الثراء والغنى في سنة واحدة ما يعجز غيره من أن يناله في سنوات ، فطابت نفسه وهدأت جائشته . ثم أخذ الحنين يساوده إلى القرية ، إلى الأهل ، إلى الرفاق ؛ فطار إلى القرية ليعيش على نمط الصالحين يسكن إلى الراحة ويطمئن إلى الهدوء وينعم بالسعادة في الأسرة بين الزوجة والولد والأهل ، لا تحدثه نفسه بنزوات العبث وقد نأى منبته ، ولا يدفعه قلبه إلى الطيش وقد ذاق مرارته .

وتلقاه أخوه الأكبر — أول ماجاء إلى القرية — في بشر وسرور ؛ يعانقه في شوق ، ويقبله في حرارة ، ويحدثه في شغف ، ويستغفره من زلته بقوله « لاتؤاخذني — يا أخي — بما فعلت ولا ترهقني من أمري عسراً ، فما كان يخيل إلى أن كلاتي وهي هينة لينة ستقزعك من دارك وأهلك ووطنك ، وما كنت أطمع بحديثي إلا أن أردك من هاوية توشك أن تتردى في قرارها بين رفاق لا كرم فيهم ولا شهامة » وأفضى الفتى من حديث أخيه الأكبر فعاشا معاً في رضى وطمأنينة .

ترى ماذا دهى الرجل الذي طرد أخاه الأصغر من داره أحوج ما يكون إليه فهو يقبل عليه في حب وشغف ؟ هل استحالت حاله وانقلبت خواطره فندم على زلته حيال أخيه الأصغر وقد فات الأوان ؟ أم هو قد أكبر فيه الهمة والنشاط حين عاد منصوراً مظفراً ؟ أم هو المال يبهر العقول الضعيفة ويستلب الأحلام الرضيعة فتجله وتحترمه لأنه هو — هو المال ؟

وانطوت السنون ، فإذا الفتى الطائش رجل فيه الرجولة والإنسانية ، وفيه الكرم والشهامة ، وفيه المروءة والسخاء ، وإذا صغاره فتيان ملء البصر والسمع والقلب جميعاً تتوثب فيهم فورة الحياة والقوة وتتألق فيهم لمعات الذكاء والعقل ، وإذا ماله يربو ويزداد فيكفل لهم جميعاً الجاه والسلطان ويحبوهم بالرفاهية والخفض .

ودأب الرجل على أن يختلس في كل سنة شهراً يقضيه في الإسكندرية ، يفر — كزعمه — من مضطرب الحياة وشواغلها إلى هدوء الوحدة وراحتها . ولكنه — في الحق — كان يهرع إلى البورصة ليشبع رغبة نفسه في المضاربات المالية ، ما يستطيع أن يصرف نفسه عنها بعد أن ذاق حلاوة الكسب ولذة الثراء . وهو يرجع إلى أهله في القرية — كل مرة — طلق المحيا بادي البشر ، تكسوه ثياب الصحة والعافية ، وترتسم عليه علامات النشاط والقوة ؛ لا يشغله الربح ولا تؤرقه الخسارة .

ما لهذا الرجل يفزع من الإسكندرية — في هذه السنة — بعد أيام قلائل ليرجع إلى القرية مشتت الذهن مقطب الجبين ، ينطوي على نفسه في صمت وسكون ، لا يطمئن إلى رفيق ولا يهفو إلى صاحب ولا يتحدث إلى صديق ؟ وتلقفته الألسن والأبصار ، وحامت حوله الشائعات : ماذا كان هناك في الإسكندرية ؟ لعل حادثة عصفت بآثار المرح في نفسه ، أو لعل نكبة نزلت فأطاحت بالبشر في قلبه ! وحار الناس في أمره وهو في صمت ، ومن حوله رجال لا يجد واحد الجرأة على أن ينزع الستار من خبيئة نفسه .

الآن برح الخفاء ، فهذا هو المحضر جاء ليوقع الحجز على كل ما يملك الرجل إلا صبابة لا تشفي غلة ولا تنقع صدى ، حتى القصر الذي يعتز به ويوليه كل عنايته واهتمامه . وارتسمت على الشفاه ابتسامة التشفي والشماتة ، ولاكت الألسن كلمات السخرية والاستهزاء ، وقال واحد من الناس « من عسى أن يكون المحظوظ الذي يشتري أملاك الرجل الثري؟ » وانبرى الأخ الأكبر يساوم الرجل لينقذه من براثن الدين ويستولي هو على أطيانه وقصره فلم يجد الرجل بداً من أن يلقي السلم فباع كل أملاكه بالثمن البخس .

وأرغمت الفاقة ربيب العز والثراء أن يسكن داراً وضيعة في ناحية قذرة من القرية ، وأن يعمل طول يومه ليكسب قوته وقوت عياله على حين أغلق الأخ الأكبر من دونه باب داره ، وأن ينزع أبناءه من المدرسة ليجد فيهم من يشد أزره ويعينه على لأواء الحياة وشظف العيش . ولكن الابن الأكبر أبى أن يخضع لنزوة أبيه فراح يناقشه في حدة ، وأراد أن ينطلق إلى عمه يرجوه أن